المجلة العربية، جامعة داكا

المجلد التاسع عشر، يونيو ٢٠١٨ م

توفيق الحكيم ومسرحيته"نهر الجنون"

الدكتور محمد منير الزمان*

Abstract

Tawfiq al-Hakim is a famous writer and playwright. He was born in Alexandria in 1898 to an Egyptian father and a Turkish mother. He joined Dimnahur Primary School until he finished his primary education in 1915. He then enrolled in a public school in the governorate of Buhaira where he graduated from secondary school and then went to Cairo with his uncles. His parents were not satisfied to have their son practice music and acting. When he departed from his parents, it was easier for him to take part in music and acting. He participated in the Revolution of 1919. It had a great impact on him. Hakim studied law in Cairo and then his father sent him to France to keer him a way from theater and acting and study law there. He traveled to Paris in 1925. But he turned to theatrical literature and stories, frequented the French theaters and the Opera House, and wrote more than fifty plays. This is why he is called the "father of the Arab theater". Tawfiq al-Hakim died on the 26th of July 1987 in Cairo.

The play "Nahr al junun" (River of Madness): The play is a mirror of human life which represents the progresses of its problems and accidents that occur in its folds and stages, and the theater thinks to reform human errors so that they can rescue humanity. The play "Nahr al junun," from Hakim's precious creations, has tried to portray the problems that are existing in Egyptian society and other developing nations in the play. He saw in his era that their the rulers are on mistake in there perception. So they took part in the movement of removing them from power and originally the rulers were thinking to change the badEgyptian society to good. But they could not because the percentage of Revolutionaryaretoo much and majority werethe most likely in the democratic system. The nation

* أستاذ مساعد، قسم العربي، جامعة راجشاهي، بنغلاديش

has not been able to recognize the truth for their ignorance and deep feelings. This is what Hakim portrayed as a true portrayal of the worst of the Egyptian society in which he lived. Egypt became a farm of ignorance, chaos and corruption. If people were in the defense of the corrupt environment, Egypt couldsavethem from bad situation. But people failed to do so. They helped the men who destroyed their country and left the experts of the people and their thinkers. This is the result of their ignorance and backwardness in teaching and learning. It was revealed from the play that democracy may not benefit the ignorant nation always.

التقديم

توفيق الحكيم هو أديب ماهر من أدباء العرب والكتاب والمسرحيين المهمين علي مستوي الوطن العربي، وهو كاتب من طراز خاص، وله وزنه ووجهة نظر ورؤية مهمة في عالم المسرح والفنون والآداب، يعد كأديب نموذجي للأدباء في العصر الحديث. إنه صاحب مدرسة مسرحية ما ستظل إلى زمن بعيد. ومسرحياته كنز من الأفكار والموضوعات والمواقف، والنقاد سيظل محتاجين إلى وقت طويل لتفسيرها واكتشافها. يذكره التاريخ عبر العصور والدهور لثرواته الأدبية وأفكاره السامية ومساهماته القيمة. ومن مسرحياته الموجزة "نهر الجنون" في فصل واحد، هى مهمة جدا للمجتمع المتخلف علما وخبرة. تحمل أغلى الإرشادات للإنسانية.

التعريف بالمسرحي

اسمه توفيق الحكيم، ولد هذا العبقري في مدينة الإسكندرية عام ١٨٩٨ لأب مصري من أصل ريفي يعمل في سلك القضاء في قرية الدلنجات، إحدى قرى مركز ايتاي البارود بمحافظة البحيرة. وذكر الدكتور إسماعيل أدهم[١] والدكتور إبراهيم ناجي[٢] في دراستهما عن الحكيم حيث ذكرا تاريخ مولده عام ١٩٠٣ بضاحية (الرمل) في مدينة الإسكندرية. لكن الراجح أنه ولد في عام ١٨٩٨.[٣] وكان أبوه يعد من أثرياء الفلاحين،[٤] وأمه تركية الأصل من أسرة أرستقراطية، وكانت ابنة

لأحد الضباط الأتراك المتقاعدين؛ وكانت تمنع الحكيم من الوصول إلي أبناء الفلاحين، كى لا يتأثر بهم، ولما بلغ السابعة من عمره التحق بمدرسة دمنهور الابتدائية حتى انتهى من تعليمه الابتدائي سنة ١٩١٥ م، ثم التحق بمدرسة حكومية في محافظة البحيرة، حيث اختتم الدراسة الثانوية، ثم رحل إلى القاهرة مع أعمامه لمداومة الدراسة الثانوية في مدرسة محمد علي[٥](١٧٦٩-١٨٤٩) الثانوية. وذلك لأن المدرسة الثانوية كانت غير موجودة في منطقته. والأقارب القائمون بالمدينة يهيئون له المنـاخ المناسب للدراسة.[٦] وفي ذلك الوقت نشأ الحب في قلبه لفتاة ذكية، وأثر ذلك في حياته كبيرا. كانت الفتاة من سنه تسكن في جوار سكنه، كانت لها علاقة مع عمة توفيق. ونتيجة لزيارة هذه الفتاة لمنزل عمته فقد تعلق الحكيم بها إلى درجة كبيرة. وقد فشل حبه؛ لأن هذه الفتاة ساءت علاقتها بعمة توفيق أولاً، ثم أنها أحبت شخصاً آخر غير توفيق. فوجد صدمة محزنة في نفسه.[٧] كان أبواه يمنعان عن الموسيقى والتمثيل. ولما ابتعد عنهم فسهل له أن يجعل نفسه لذلك كثيرا. ولقد وجد في تردده على فرقة جورج أبيض[٨] ما يسر ميوله إلى المسرح.

وفي هذه المرحلة وقعت ثورة ١٩١٩. وكان لها الأثر الكبير في نفوس الشباب اشترك فيها الكثير من الشبان آنذاك. ورغم أنها فشلت وتم القبض على سعد زغلول.[٩] الذي اشترك فيها الحكيم أيضاـ وعلى رغم فشلها أنها كانت ينبوعاً لأعمال الكثير من الأدباء والفنانين، لأنها أشعـلت الروح الشعبية في قلوبهم، فبادروا إلى إنتاجهم الذي يفيـض بالوطنيـة، فكانت أولى أعمال الحكـيم " الضيف الثقيل".[١٠]

وشارك مع أعمامه في المظاهرات في عام ١٩١٩ مع الثورة المصرية واعتقل بسجن القلعة. إلا أن أباه تمكن على نقله إلى المستشفى العسكري إلى أن أفرج عنه. ثم عاد إلى الدراسة وحصل على شهادة الباكالوريس عام ١٩٢١. وبعد انقضاء فترة السجن في المعتقل درس الحكيم القانون بناءً على رغبة والده الذي كان يهدف من تعليم ابنه أن يحصل على الدكتوراه في القانون.[١١] وتخرج منها عام ١٩٢٥، التحق الحكيم بعد ذلك بمكتب

أحد المحامين المشهورين، فعمل محاميا متدربا فترة زمنية قصيرة.[١٢] ونتيجة لاتصال الحكيم بالمسرح العربي فقد كتب عدة مسرحيات كانت مواضيعها شرقية ويدل على ذلك عناوينها: " المرأة الجديدة " و " العريس " و " خاتم سليمان " و " علي بابا ".[١٣]

ثم الحكيم عزم الرحلة إلى فرنسا لدراسة الحقوق، فأرسله والده إلى فرنسا ليدرس القانون ويبتعد عن التمثيل والمسرحية. فسافر إلى باريس عام ١٩٢٥. وفي باريس تطلع الحكيم إلى آفاقٍ جديدة وحياةٍ أخرى تختلف عن حياة الشرق، فنهل من المسرح بالقدر الذي يروي ظمأه وشوقه إليه. ترك دراسة القانون، واتجه إلى الأدب المسرحي والقصص، وتردد على المسارح الفرنسية ودار الأوبرا، ولما علم والده شانه هذا فاستدعاه ليرجع إلى الوطن، فعاد الحكيم سنة ١٩٢٨ ولم يكمل حلم أبويه. وبعد عوده نصب نفسه وكيلا للنائب العام سنة ١٩٣٠، في المحاكم المختلطة بالإسكندرية ثم في المحاكم الأهلية. وفي سنة ١٩٣٤ انتقل إلى وزارة المعارف ليعمل مفتشاً للتحقيقات، ثم نقل مديراً لإدارة الموسيقى والمسرح بالوزارة عام ١٩٣٧، ثم إلى وزارة الشؤون الاجتماعية ليعمل مديرا لمصلحة الإرشاد الاجتماعي. استقال في سنة ١٩٤٤، ليعود ثانية إلى وظيفة الحكومية سنة ١٩٥٤ مديرا لدار الكتب المصرية. وفي نفس السنة انتخب عضواً عاملاً بمجمع اللغة العربية وفي عام ١٩٥٦ عيّن عضوا متفرغا في

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بدرجة وكيل وزارة. وفي سنة ١٩٥٩ عيّن مندوب مصر بمنظمة اليونسكو في باريس. ثم عاد إلى القاهرة في أوائل سنة ١٩٦٠ إلى موقعه في المجلس الأعلى للفنون والآداب. عمل بعدها مستشاراً بجريدة الأهرام ثم عضواً بمجلس إدارتها في عام ١٩٧١. وتوفي توفيق الحكيم في يوم السادس والعشرين من شهر يوليو لعام ١٩٨٧م بمدينة القاهرة.[١٤]

كان الحكيم أول مؤلف استلهم في أعماله المسرحية موضوعات مستمدة من التراث المصري وقد استلهم هذا التراث عبر عصوره المختلفة، سواء أكانت فرعونية أو رومانية أو قبطية

أو إسلامية. إنه توفيق الحكيم الذي غذى الفن الدرامي وجعله فرعا هاما من فروع الأدب العربي؛ وخير دليل على ذلك أعماله المسرحية التي تربو على الخمسين باختلاف أنواعها وشخصياتها، لذا كان جديرا أن يطلق عليه اسم "والد المسرح العربي".[١٥] وكتب ما يزيد على خمسين مسرحية، نطلع على جوانب محدّدة في مسرحه، الذي نجح من خلاله في إرساء اصطلاح خطير، هو مفهوم واستخدام "اللغة الثالثة في المسرح"[١٦] ومن اشهر مؤلّفات توفيق الحكيم– رواية عودة الرّوح: صدرت عام ١٩٣٣م. ومسرحيّة شهرزاد: صدرت عام ١٩٣٤م. ورواية يوميات نائب في الأرياف: صدرت عام ١٩٣٧م. ومقالات تحت شمس الفكر: صدرت عام ١٩٣٨م. ورواية حمار الحكيم: صدرت عام ١٩٤٠م. ومسرحية بجماليون: صدرت عام ١٩٤٢م. ومجموعة قصص عدالة وفنّ: صدرت عام ١٩٥٣م. ومسرحية رحلة إلى الغد: صدرت عام ١٩٥٧م. وديوان شعر رحلة الربيع والخريف: صدر عام ١٩٦٤م. ومسرحية الورطة: صدرت عام ١٩٦٦م. ومقالات بين الفكر والفنّ: صدرت عام ١٩٧٦م. وذكريات مصر بين عهدين: صدرت عام ١٩٨٣م.[١٧]

تحليل المسرحية[١٨] "نهر الجنون"

الفكرة الرئيسية[١٩] في مسرحية نهر الجنون إذا ما ذهب كاتب أن يكتب شيئا فيحضره في ذهنه وفكره ثم يرتبه في عقله ثم يسرى في سبيله ليجعله إنتاجا مفلحا. أما الكاتب توفيق الحكيم فحمل في نفسه فكرة حينما ذهب إلى أن يكتب مسرحيته المختصرة "نهر الجنون" في فصل واحد، وإذا ما تتبعنا وطالعنا المسرحية من البداية إلى النهاية فوجدنا فيها أن الكاتب صور فيها صورة حقة لمجتمعه وقدم فيها طبيعة أبناء دولته مصر المتخلفة في حقل التنمية والتطور. وأظهر فيها أن المواطنين إذا تخلفوا في فكر التقدم والارتقاء ولايريدون التخلص من سوء الحال في الاقتصاد والثقافة والتربية والتعليم، ولا يرجحوا ازدهار الإنسانية العظيمة وتقدم البلاد إلى الجسر المهم للتطو ر والتنمية فلا يمكن إنقاذ الدولة وأبناءها ولا تستطيع حكام الدولة وقوادها وروادها أن يشقوا لهم سبيل الفلاح. بل

يكتسبون النشاط والقوة والترغيب في الأعمال من تشجيع المواطنين الباسلين. وإن رؤساء الدولة وسادتها تقود الدولة صحيحا وسليما إذا ما كان عام الناس داعمين لهم وقائمين لهم بكل المساعدة في إنجاح مشروعاتهم المفيدة وخطواتهم الناجحة. فلو اتفقوا على باطل أو أدوا أصواتهم ضد قرار صالح للدولة ما جعلوه قادة الوطن وعقلاءه، فلا سبيل للقادة أن يمثلوها فيما بين المواطنين بسهلة. فإنهم يردوا ذلك ولايساعدوا تمثيله. وأشار المسرحي في المسرحية نهر الجنون أن اهل الكراسي وأصحاب مفاتيح الحكومة إذا غلبوا على العامة بحيلهم ومكائدهم ففسد الأمر كله. ولكن عامة الناس إذا استيقظوا وقاموا على وجوهم الحكام بشدة فلا يبقى أمام الحكام دون أن يستسلموا أنفسهم أمام العوام. والنكتة الخفية التى اطلعت عليها بحوارات المسرحية المذكورة بأن الأغلبية لها قيمة مهمة في النظام الديمقراطي وأن السلطة الظالمة لا تقوم على قدميه الضعيفين وقتا طويلا إلا ستسقط وتزول سيطرتها في آن قريب.

نوع المسرحية

إن النقاد قد قسموا مدرسة الحكيم المسرحية إلى ثلاثة أنماط، الأول المسرح الذهني أو مسرح الأفكار والعقل: والذي يخترع القارئ من خلاله عالما من الدلائل والرموز التي يمكن إسقاطها على الواقع بسهولة شديدة، لتقديم رؤية نقدية للحياة تتسم بقدر كبير من العمق والوعي. و من هذا القبيل مسرحية "أهل الكهف" التي نشرها عام ١٩٣٣ ومحورها يتمثل في صراع الإنسان مع الزمن.[٢٠] ومسرحية "بيجماليون" ونشرت عام ١٩٤٢.[٢١]

والنمط الثاني اللامعقول: واللامعقول عند توفيق ليس هو ما يسمى بالعبث في المذاهب الأوربية ؛ ولكنه استكشاف لما في فن المصريين وتفكيرهم الشعبي من تلاحم المعقول في اللامعقول.[٢٢] ومن هذا القبيل مسرحية "الطعام لكل فم"، وفيها يجمع ما بين الواقعية والرمزية.

وكذلك مسرحية "نهر الجنون"، وهي مسرحية من فصل واحد، وتتضح فيها أيضاً رمزية الحكيم. ذكر فيها الحكيم أسطورة قديمة بأن ملكا شرب جميع رعاياه من نهر الجنون ـ كما رأى الملك في منامه ـ ولم يشرب هو ووزيره، وتتطور الأحداث وظن الناس أنهما مجنونان وهم عاقلون. وعلى ذلك فإنّ عليهما أن يشربا أيضاً مثلما شربوا. وقد جردّ الحكيم مسرحيته من أي إشارة إلى الزمان والمكان. وهكذا فإننا نستطيع أن نشعر بصورة أكثر وضوحاً لاعترض الحكيم ضد هذا القسر الذي يزاوله المجتمع على الإنسان فيجبره على الإنسياق والتماثل.

أما النمط الثالث والأخير فهو المسرح الاجتماعي الذي طرق من خلاله الحكيم باب الفساد في مجتمع المدينة، كما تظهر من خلالها البيئة المصرية بوضوح من خلال أسلوب السخرية والنقد التهكمي المرير، الذي يحوي عنصر التفكه بدلا من الإضحاك المسفّ.

شخصيات[٢٣] المسرحية

أقام المسرحي هناك شخصيات يدور على لسانهم الحوار المسرحي وهم الملك والملكة والوزير ورأس الأطباء وكبير الكهان. وقد تمت المسرحية بالحوار المستمر بينهم. إلا أن الملك والوزير والملكة هم من الأركان الأصلية للمسرحية. وأكثر الحوار دار على لسانهم. وأبرز الشخصيات فيهم شخصية الملكة التى تلعب دورا كبيرا في اضطرار الملك على أن يتفق برأيها.

لغة الحوار

المسرحية تقبل الحوار باللغة الفصحى وباللغة العامية جميعا. أما توفيق الحكيم فقد استخدم اللغة الفصحى في مسرحيته "نهر الجنون" فلم نجد أى حوار شامل لكلمة عامية استخدمها في مسرحيته هذه.

حادثة المسرحية

يحكى إن في زمن من الأزمنة الغابرة رأى ملك في المنام أن طاعون الجنون نزل في نهر يسري في مدينة. فصار الناس كلما شرب أحد منهم الماء من النهر أصيب بالجنون. وكان المجانين يجتمعون ويتحدثون بلغة لا يفهمها العقلاء، فواجه الملك الطاعون وحارب الجنون. حتى إذا ما أتى صباح يوم استيقظ الملك وإذا الملكة قد جنت. وصارت الملكة تجتمع مع ثلة من المجانين تشتكي من جنون الملك!! نادى الملك بالوزير: يا وزير الملكة جنت أين كان الحرس. الوزير: قد جن الحرس يا مولاي.

قال الملك: إذن اطلب الطبيب فورا، قال الوزير: قد جن الطبيب يا مولاي. قال الملك : ما هذا المصاب ، من بقي في هذه المدينة لم يجن ؟ رد الوزير : للأسف يا مولاي لم يبق في هذه المدينة من لم يجن سوى أنت وأنا. ثم قال الملك : يا الله أأحكم مدينة من المجانين!! رد الوزير على الملك: عذرا يا مولاي، فإن المجانين يدعون أنهم هم العقلاء ولا يوجد في هذه المدينةمجنون سوى أنت وأنا! فقال الملك : ما هذا الهراء ! هم من شرب من النهر وبالتالي هم من أصابهم الجنون! قال الوزير : الحقيقة يا مولاي أنهم يقولون إنهم شربوا من النهر لكي يتجنبوا من الجنون ، لذا فإننا مجنونان لأننا لم نشرب. ما نحن يا مولاي إلا حبتا رمل الآن.. هم الأغلبية.. هم من يملكون الحق والعدل والفضيلة ... هم الآن من يضعون الحد الفاصل بين العقل والجنون.

هنا قال الملك: يا وزير أغدق على بكأس من نهر الجنون إن الجنون أن تظل عاقلا في دنيا المجانين.

بالتأكيد الخيار صعب..عندما تنفرد بقناعة تختلف عن كل قناعات الآخرين ..عندما يكون سقف طموحك مرتفع جدا عن الواقع المحيط ..هل ستسلم للآخرين ؟؟؟.. وتخضع للواقع .. ؟؟؟ وتشرب الكأس ؟؟؟

حوار[٢٤] المسرحية

جرى الحوار في المسرحية بين الشخصيات كما يجرى الكلام بين الناس. وكان الحوار القائم بينهم مبين وموضح ليس فيه تعقيد أو مشكلة في فهمه. هناك نزل الطاعون بين الناس فردد الكلام في كيفية الإنقاذ منه. وأشار المسرحي هنا إلى أنه إذا ما جن رئيس الدولة وأمراءه وأراكينه ووزراءه وخلطت عليهم الأمور واستغرقوا في الخمر والدعارة فلا سبيل للمواطنين إلا أن يقوموا على وجوههم بسلاح أغلبيتهم وحينئذ سيضطر الرؤساء على الخضوع أمامهم.

هذا ما لا يخفى على أحد بأن الملكة هى عضو الملك ولها دور مهم في سيادة الملك. قد تشاور الملك في حل المشكلات فإذا أصابتها المصيبة والوباء فيشكل ذلك على الملك. وأن الملك إذا ما أصيب بوباء أو يبتلى ببلاء فذلك يصيبه إلى أن يعتقد بأن الملك أخطأت. وذلك نراه يقص ذلك بقوله:[٢٥]

الوزير — وافرحتاه

الملك — علام الفرح أيها الرجل!

الوزير — (يستدرك) عفو مولاي. إن حزني لعظيم. ليتني كنت فداء الملكة.

الملك — شد ما أبغض هذا الكلام. ليتك تستطيع على الأقل أن تجد لها دواء ... يحزنني أن يذهب مثل عقلها الراجح و يخبو هذا الذهن اللامع في سماء هذه المملكة!

الوزير — حقاً ، إنها كالشمس في سماء هذه المملكة!

وإذا ما أصاب الإنسان المرض فيلوذ إلى الطبيب، وإذا ما اختلط عقله فمن يعالج المريض؟ كذلك المجتمع الإنسانى إذا فسد أركانه فلا سبيل لإصلاحه. ونرى في الحوار الآتى ذلك الحال السيئ.[٢٦]

الملك — نعم. أنت دائماً تردد ما أقول ولا تفعل شيئاً. على برأس الأطباء!

الوزير — رأس الأطباء؟

الملك – نعم رأس الأطباء. لعله يستطيع لها شفاء..

الوزير – مولاى نسى أن رأس الأطباء كذلك قد ذهب..

الملك – ذهب أين؟

الوزير – هو أيضاً من الشاربين.

الملك – يا للمصيبة..

الوزير – لقد رأيته كذلك بين يدي الملكة و قد تغيرت نظراته و حركاته و كلما لمحني هز رأسه هزاً لا أدرك له معنى.

الملك – رأس الأطباء قد جن؟!

الوزير – نعم..

الملك – لقد كان نابغة زمانه. أية خسارة أن يصاب مثل هذا الرجل بالجنون..

الوزير – و في وقت نحن أحوج ما نكون إلى علمه و طبه.

الملك يعتقد أن ماء النهر مسموم فابتعد؛ ولكن الملكة أجبرته إلى شربه لما أن لها يد على الملك في الأمور كلها وكذا تكون ملكات العالم. والملك قد يضطر على قبول رأيها رضاء لها، فيخطأ ويضل ويهلك الدولة بمشاورتها الفاسدة. وقد تكون عكسه فيسفيد الناس بمشاورة الملكة. نرى في هذا المضمار تجرى الحوار بين الزوجين وأجبرت هى الملك ليشرب الماء المسموم الذي هو سبب الجنون في عقيدته. وهذا هو الواقع في الملوك. وإليه أشير في الحوار الآتي:[٢٧]

رأس الأطباء – و ماذا يشرب؟

الملكة – ماء النهر.

رأس الأطباء: أتحسبينه يرضى يا مولاتي؟

الملكة – أنا أحمله على ذلك.

ونراها تجبر الملك بحوارها الآتى:[٢٨]

الملكة – نعم وافرحتاه! إنما ينبغي لك أن تصغى إلى ما أقول وأن تعمل بما أنصح لك به. يجب عليك أن تقلع من فورك عن شرب النبيذ و أن تشرب من ماء النهر.

الملك – (ينظر إليها و قد عاد إلى يأسه و حزنه) ماء النهر!

الملكة – (بقوة) نعم.

من النساء من تعامل زوجها ما يزعجه ويذهله، ولا يجعله ليفكر صحيحا. وفي الأصل تصبح الملكة مالكة عقله وضميره وجميع أموره، فلا يبقى له من سبيل، ليسلك الطريق الصحيح ويهدى الناس إلى الصراط المستقيم. وقد تكون للدولة نعمة عظيمة. فتفيد الملك والملك والناس جميعا، و يتضح ذلك في الحوار الآتي:[٢٩]

الملكة – (في قوة) اصغ إليّ و اعملِ بما أقول.

الملك – (ينظر إليها ملياً في يأس) إني لأرى الأمر يزداد في كل يوم شراً. وهل يخطر لي على بال أنها تتكلم مثل هذا الكلام وأن ما بها يبلغ هذا ..ويلاه! لابد من إنقاذها... لابد من إنقاذها. كاد يذهب من رأسي العقل (يخرج سريعاً): أيها الوزير! عليّ بالوزير!

إذا ذهب الناس عقولهم فلا يميز بين الجيد والردي وبين الطيب والخبيث وبين الحق والباطل وبين الصدق والكذب. هو يفقد عقله وقوته المميزة. وإذا فقد عقله أصبح مجنونا، ولا يشعر ذلك بنفسه؛ بل يظن نفسه صحيحا، ويرى رأيه حقا، ومذهبه هو المذهب الصحيح عنده. فالملك والوزير قد جنا بشرب النبيذ فيظهر له أن ما يفكر فهو صحيح وما تفكر الملة فباطل. وهذا ما نفهمه ونستلهم من الحوار الجاري بين الوزير والملك:[٣٠]

الوزير – أتدري ما يقول الناس عنا؟

الملك – أي ناس؟

الوزير – المجانين.

الملك – ماذا يقولون؟

الوزير – يزعمون أنهم هم العقلاء و أن الملك و الوزير هما المصابان...

الملك — صه! من قال هذا الهراء؟

الوزير — تلك عقيدتهم الآن.

الملك — (في تهكم حزين) نحن المصابان و هم العقلاء..!

أيتها السماء رحماك! إنهم لا يشعرون أنهم قد جنوا.

الوزير — صدقت

الملك — يخيل إليّ أن المجنون لا يشعر أنه مجنون.

إذا ما فسدت الناس عقولهم ولايرون الخير إلا فيما يرون، ولايبالون بحكام الدولة وخبراءها وعقلاءها، بل أجبروهم على قبول ما فكروا، ورد ما كرهوا، ولا يبقى سبيل للعقلاء إلا التسليم أمامهم وترجيح الكذب على الصدق والخطأ على الصحة والباطل على الحق. فإن الغلبة أهم شيء في النظام الديمقراطي. وهذا يرشدنا إلى أن الديمقراطية قد تكون مضرة للناس، إذا كان أعضاءها جهلاء، غير متعلمين ومثقفين. فالسيادة في دولة الجهلاء أصعب وأثقل للسادة والقادة. فإنه لا طائلة في قيادة قوم مجانين إلا أن يكون القادة مجانين كمثل المواطنين. وبالعكس أن الديمقراطية الحديثة قد تكون مفيدة للدولة والناس، كما نرى أن الملك والوزير إذا ما جنا وأرادا أن سلطوا أراءهما الباطلة على الناس فخالفوهما خلافا شديدا حتى أجبروا على التسليم أمام الأغلبية. وإليه أشير في الحوار الآتي:[٣١]

الوزير — الناس، المجانين، إنهم يرموننا بالجنون. ويتهامسون علينا ويتآمرون بنا، وهما يكن من أمرهم وأمر عقلهم فإن الغلبة لهم، بل إنهم هم وحدهم الذين يملكون الفصل بين العقل والجنون. لأنهم هم البحر وما نحن إلا حبتان من رمل. أتسمع مني نصحاً يا مولاي؟

إن الديمقراطية تعلمنا بأن رأى الغلبة هو المقبول وأما رأى الأقلية فمردود، ولوكان رأيهم صحيحا. فهذا قد انكشف أمام القارئين بأن الملك والوزير لم يشربا من ماء النهر،

والباقون قد أصبحوا مجانين بعد أن شربوا ماءها في عقيدة الملك؛ ولكن المجانين يدعون أنهم هم العقلاء ولهم الأغلبية، فلا سبيل لهما إلا أن يستسلما أمامهم وأن يقبلا آراءهم. والحوار الآتي تخبرنا بهذا:[٣٢]

الوزير – عقيدتي فيك وحدها ما نفعها؟ إن شهادة مجنون لمجنون لاتغني شيئاً.

الملك – و لكنك تعرف أني لم أشرب قط من ماء النهر.

الوزير–أعرف.

الملك – و أني قد سلمت من الجنون لأني لم أشرب، و أصيب الناس لأنهم شربوا .

الوزير – هم يقولون بأنهم إنما سلموا هم من الجنون لأنهم شربوا وأن الملك إنما جُنّ لأنه لم يشرب.

الملك – عجباً! إنها لصفاقة وجه.

الوزير – هذا قولهم وهم المصدقون، وأما أنت فلن تجد واحداً يصدقك!

الملك – أهكذا يستطيعون أيضاً أن يجترئوا على الحق؟!

إذا غاب العقل وجلا الجهل من الملك والوزير فلا بديل لهما أمام العقلاء والخبراء إلا أن يتخذا ذلك الرأى الذي اجتمعوا عليه. فالملك يشرب الماء الذي يزعمه سما. فالحوار الأخير ينبئنا بذلك الثمار الحموض:[٣٣]

الملك – (يرفع رأسه أخيراً) صدقت إني أرى حياتي لا يمكن أن تدوم على هذا النحو.

الوزير – أجل يا مولاي. وأنه لمن الخير لك أن تعيش مع الملكة والناس في تفاهم وصفاء، ولو منحت عقلك من أجل ذلك ثمناً!

وجاء في حوار قريب للحوار السابق:

الملك – (في تفكير) نعم إن في هذا كل الخير لي. إن الجنون يعطيني رغد العيش مع الملكة والناس كما تقول. و أما العقل فماذا يعطيني!

الوزير – لاشيء. إنه يجعلك منبوذا من الجميع، مجنوناً في نظر الجميع!

الملك — إذن فمن الجنون أن لا أختار الجنون.

الوزير — هذا عين ما أقول.

الملك — بل إنه لمن العقل أن أوثر الجنون.

الوزير — هذا لا ريب عندي فيه.

الملك — ما الفرق إذن بين العقل و الجنون!

الوزير — (و قد بوغت) انتظر... (يفكر لحظة) لست أتبين فرقاً!

الملك — (في عجلة) عليّ بكأس من ماء النهر!

إن المسرحية مرآة الحياة الإنسانية تمثل وتقدم مشاكلها وحوادث التي تليقها في طياتها وأطوارها، ولو لاحظنا مسرحية نهر الجنون من منظور فكري فيتضح لنا بأن المسرحي فائز مائة في المائة نسبة في تصوير أسوأ الأحوال للمجتمع المصري الذي عاش فيه. فإن مصر أصبحت يومئذ مزرعا للجهل والفوضى والفساد. فلو قام الناس في دفاع البيئة الفاسدة لنجت مصر من سوء الحال. ولكن تخلف الناس عن ذلك بل ساعدوا ذلك الرجال الذين أهلكوا بلادهم، وذلك ثمرة جهلهم وتخلفهم في التعليم والتعلم.

الخاتمة: إن كل مسرحية تحمل دروسا في حوارها، وتقيم المسرحية من جوانب مختلفة، منها بعناصرها التي قامت عليها بناء المسرحية. ولو أمعنا النظر في عمق المسرحية "نهر الجنون" لأبصرنا أن المسرحي مفلح في بناءها، حيث أجمع العناصر فيها بدقة، وأراد أن يرسل رسالة إلى المجتمع الإنساني عامة وإلى المجتمع المصري خاصة. رأى الكاتب توفيق الحكيم وطنه مصر مستغرقة في قعر الظلمات، وأكثر سكانها غافلون عن العلم والفهم الصحيح، فلا يرون الطيب طيبا؛ بل يركنون إلى القادة الجهال ويقدمون دعمهم لهم. وإذا الدولة تتبع الديمقراطية، فلا حق لأحد أن يزجرهم أو يمنعهم أو يحول طريقهم؛ فإن الأغلبية لهم، وهذا ما يستحسنه المواطنون. فلا يسمعون إرشاد من يهديهم إلى الفساد. بل

يحبون تلك السادة الخبراء الذين يقومون بما ينفعهم ويبنى مستقبلهم ويقوي ثقافتهم. وإذا ما أراد الحكام أن يلقيهم في الفتنة فلا يستطيعون على ذلك لأن الأغلبية لهم والقوة لهم.

المصادر والمراجع

١. إسماعيل أحمد إسماعيل إبراهيم أدهم١٣٢٩–١٣٥٩ هـ الموافق ١٣ يناير ١٩٠١– ١٩٤٠ م، كاتب مصري ولد بالإسكندرية .الزركلي، خير الدين(١٩٨٠)" ؛ إِسْمَاعيل أَدْهَم ."موسوعة الأعلام، (مكتبة دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢ م).

٢ إبراهيم ناجي: شاعر مصري، ولد في ٣١ ديسمبر ١٨٩٨م في حي شبرا في القاهرة، وتوفي عام ١٩٥٣م.

٣ د. إسماعيل أدهم و د. إبراهيم ناجي، توفيق الحكيم، ص٥٧ .

٤ د. شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، (القاهرة: دار المعارف)، ط١٠، ص ٢٨٨.

٥ هو مؤسس الأسرة العلوية وحاكم مصر ما بين عامي ١٨٠٥ إلى ١٨٤٨م.

٦ د. مصطفى علي عمر، القصة وتطورها في الأدب المصري الحديث، موسوعة رواد المسرح العربي والعالمي، ص ٢٠٢.

٧ د. إسماعيل أدهم، و د. إبراهيم ناجي، المرجع السابق، ص٦٦ وما بعدها.

٨ جورج أبيض ١٨٨٠– ١٩٥٩، ممثل لبناني ، قدم أول فيلم غنائي مصري. وكان أول نقيب للممثلين في مصر.

٩ سعد زغلول ١٨٥٨–١٩٢٧م زعيم مصري وقائد ثورة ١٩١٩ في مصر. شغل منصب رئاسة الوزراء ومنصب رئيس مجلس الامة.

١٠ لوسي يعقوب، عصفور الشرق توفيق الحكيم، (دار المصرية اللبنانية، ١٩٨٧م)،ط١، ص ٣٧.

١١ يعقوب. م. لنذاو، دراسات في المسرح والسينما عند العرب، ترجمة أحمد المغازي، ص ٢٣٥ .

١٢ المصدر نفسه.

١٣ أ. بابادبولو، " توفيق الحكيم وعمله الأدبي "، مقالة ضمن مسرحية " السلطان الحائر"، ص ١٨٢ .

١٤ د. فاطمة موسى، قاموس المسرح،(الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م)، ب ط، ج٢، ص ٥٧٤.

١٥ د. نادية رءوف فرج، يوسف إدريس والمسرح المصري الحديث(مصر: دار المعارف، ١٩٩٨م)، ط١، ص ٧١ .

١٦ أحمد علي البحيري، المقال: توفيق الحكيم.. رائد "ريبورتوار" الورق، جريدة الاتحاد، الخميس ٢٦ يوليو ٢٠١٢.

١٧ توفيق الحكيم، أهل الكهف (القاهرة : دار الشروق)،ط٤، ص١٢٨، ١٢٩، ١٣٠.

١٨ هى رواية تمثيل طائفة من الناس لحادث تحقق أو مخيل لا يخرج عن حدود الحقيقة أو الإمكان. (الأدب الحديث: تاريخ ودراسات، محمد بن سعد بن حسين، دار عبد العزيز آل حسين، ط٦، ج١، ص٢٥٣.)

١٩ هي المفهوم المجرد الذي يحاول المؤلف تجسيده من خلال تمثيله في شخصيات لها أقوال وأحداث. د.ابراهيم حمادة، معجم المصطلحات الدرامية والمسرحية، (القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٥، ص ٨٨).

٢٠ الإندو، تاريخ المسرح العربي، ترجمة د. يوسف نور عوض، ص ١١٠.

٢١ د. سامي منير حسين عامر، المسرح المصري بعد الحرب العالمية الثانية بين الفن و النقد السياسي والاجتماعي (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٧٨ م)، ط1، ص١٩.

٢٢ د. عبد الرحمن ياغي، في الجهود المسرحية – الإغريقية الأوروبية العربية (من النقاش إلى الحكيم)، ب ت، ص ١٨٥.

٢٣ إنها الواحد من الذين يؤدون الأحداث الدرامية فى المسرحية المكتوبة أو على المسرح فى صورة ممثلين. وكما قد تكون هناك شخصية معنوية تتحرك مع الأحداث ولا تظهر فوق خشبة التمثيل فقد يكون هناك أيضاً رمز مجسد يلعب دوراً فى المسرحية كمنزل أو بستان أو بلدة أو نحو ذلك. فالشخصية إذن هى مصدر الحبكة التى يمكن أن تتطور من خلال الأفعال والأقوال التى تصدرها الشخصية ". [حمادة؛ إبراهيم، معجم المصطلحات الدرامية والمسرحية، (القاهرة: دار المعارف،١٩٨٥)، ص٥٥.

٢٤ هو الذي يوضح الفكرة الأساسية ويقيم برهانها، ويجلو الشخصيات ويفصح عنها ويحمل عبء الصراع الصاعد حتى النهاية. الدكتور رشاد رشدي، فن كتابة المسرحية (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ب ت)، ص٨١.

٢٥ توفيق الحكيم، سر المنتحرة – نهر الجنون– (مصر: مكتبة مصر،١٩٢٩م)،صس ١٦٨–١٦٧.

٢٦ المصدر السابق، ص ١٦٨–٦٩.

٢٧ المصدر السابق، ص ١٧٣.

٢٨ المصدر السابق، ص ١٧٥.

٢٩ المصدر السابق، ص ١٧٥.

٣٠ المصدر السابق، ص ١٧٦.

٣١ المصدر السابق، ص١٧٧.

٣٢ المصدر السابق، ص ١٧٩.

٣٣ المصدر السابق، ص ١٨٠–٨١.